مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 41 – عدد 4 (2025): 295-313

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 41-No.4 (2025):293-313

مفهوم الزمن عند جيل دولوز
بلورات الزمن وتأثيرها في تشكيل الذاتية الإنسانية

أوس فائق علي[1]*، نارمان صالح عامر[2]**

1_ طالب ماجستير، قسم الفلسفة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة دمشق.

*- Auos.ali@damascusuniversity.edu.sy

2_ دكتور في قسم الفلسفة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق.

**-Nareman4.amer@damascusuniversity.edu.sy

الملخّص:

يتناول هذا البحث مفهوم الزمن عند الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز من حيث أنه توليفٌ متعددٌ يمكن النظر إليه في ثلاث تركيبات، توليف العادة، وتوليف الذاكرة، وتوليف العود الأبدي، تشكل هذه التركيبات في مجملها مفهوم الزمن، وتظهر بشكلٍ مركزٍ في بلوراتٍ زمنيةٍ، استخدمها دولوز في إطار بحثه في السينما التي احتل فيها الزمن موقع الحركة، وأصبح بمثابة المال بالنسبة لها، بحيث ينتهي الفلم عندما يتوقف التمويل، وهكذا أصبح الزمن العنصر الأساسي الذي يمكِّن الصور السينمائية من التعاقب لعرض المشهد كاملاً ضمن ديناميكية البلورات الزمنية، وهذا التصور البلوري وإن كان دولوز استخدمه في السينما، فإنه ليس حكراً على السينما فحسب، وإنما يمكن استخدامه كنموذج لفهم الذاتية الإنسانية التي تنحلُّ وتتشكل في الزمن الذي ينعكس في البلورات.

يعتبر هذا البحث محاولةً لاستكشاف الآلية التي تتداخل فيها الأبعاد الزمنية في تشكيل الذاتية الإنسانية بصفتها كيان متحرك يتشكل في كل لحظةٍ وفق المسارات المتغير لحركة تركيبات الزمن داخل البلورة وذلك من خلال حالة التبادل بين الافتراضي والراهن في أصغر حلقةٍ من حلقات البلورة والتي يظهر فيها الزمن بصورته النقية.

الكلمات المفتاحية: بلورات الزمن، الذاتية الإنسانية، الافتراضي، العود الابدي، الماضي المحض.

تاريخ الإيداع: 2025/01/16
تاريخ القبول: 2025/05/20

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص CC BY-NC-SA 04

The concept of time according to Gilles Deleuze-time crystals and their impact on shaping human subjectivity

Auos faek Ali[1*], Nareman Saleh Amer[2]**

1_ Master Student in the Department of Philosophy, Faculty of Arts and Human Sciences, Damascus University.

*-auos.ali@damascusuniversity.edu.sy

2_ Doctor in the Department of Philosophy, Faculty of Arts and Human Sciences, Damascus University.

**-Nareman4.amer@damascusuniversity.edu.sy

Received: 16/01/2025
Accepted: 20/05/2025

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Abstract:

This paper explores the intriguing concept of time as articulated by the French philosopher Gilles Deleuze. Deleuze views time not as a linear progression but rather as a rich synthesis that can be examined and understood through three distinct frameworks: the synthesis of habit, the synthesis of memory, and the synthesis of eternal return. Together, these perspectives shape our understanding of time and are vividly illustrated through what Deleuze refers to as "time crystals" employed by Deleuze in his examination of cinema. In this context, time assumes the role of movement and is likened to a form of currency within the film industry, signifying that a film comes to an end when financial support is withdrawn. Consequently, time emerges as the essential element facilitating the sequential arrangement of cinematic images, thereby enabling the presentation of a complete scene within the dynamic framework of time crystals. Although Deleuze specifically applied this crystalline model to cinema, it transcends this singular domain; it can also serve as a valuable framework for comprehending human subjectivity, which continuously dissolves and reconstitutes itself within the temporal experience reflected in these crystals. While Deleuze's crystalline metaphor is rooted in the study of cinema, its implications extend far beyond this medium. It serves as a powerful framework for comprehending human subjectivity, which continuously dissolves and reconstitutes itself in the context of the time reflected in these crystals. Through this lens, we gain deeper insights into how our experiences and identities are shaped by the multifaceted nature of time itself. This research seeks to delve into the intricate mechanisms by which temporal dimensions intersect to shape human subjectivity, viewing it as a dynamic entity that evolves in every moment according to the shifting pathways of time's synthesis within the crystal. This process unfolds through the manifestation of the virtual and the transformation of what is realized into a hypothesis within the smallest loop of the crystal, where time reveals itself in its most unadulterated form.

Key words: Crystals of Time, Human Subjectivity, The Virtual, Eternal Return, Pure Past.

1. المقدمة:

يعتبر الزمن مفهوماً معقداً، متعدد الأوجه، له أثارٌ عميقةٌ على حياة الإنســـان، وإدراكه لذاته وللعالم من حوله، لهذا تعددت الآراء والنظريات التي تبحث في مفهوم الزمن، محاولةً الوقوف على حقيقته والكشــف عن مكنون أمره، والوصـــول إلى قولٍ فصـــلٍ فيه، وذلك بحكم الطبيعة الغامضـة التي تحيط بمفهومه، فهو غير محسوسٍ بذاته، يدركه الإنسان من خلال الأشياء التي تتغير بشكلٍ مستمرٍ، سواء على الصعيد الذاتي الداخلي، مثل، نمط التفكير وتطور وعي الإنسان لذاته، أو على الصعيد الخارجي، من تعاقب الليل والنهار وتغيّر الفصول والكثير من الأحداث التي تشير إليه بشكلٍ صريحٍ أو مضمر، فهو يدخل في نسيج الأحداث كافةً، الحياتية منها وغير الحياتية، الصـــغيرة منها والكبيرة، ومع أنه لا يمكن للتفكير أن يفترض عدم وجود الزمان، ذلك لأنه هو ذاته يعمل في زمان، إلا أن النظرة للزمان لم تكن واحدة، فقد اختلفت باختلاف المذاهب والتيارات الفلسفية، فكل فيلسوفٍ كان ينظر إلى الزمان من جهةٍ تضمن اتساق نهجه الفلسفي، من هنا كانت نظرة دولوز للزمان تتفق مع فلسفة الجذمورية التي لا تؤمن إلا بالتعدد فكان الزمان عنده توليفٌ متعدد الأبعاد، يتركب في ثلاثة تراكيبٍ تشـــكل في مجملها بنية الزمن الذي يعتبر مجالاً للأحداث والإمكانيات، وقوةً خلاقةً تتيح لنا خلق تجاربٍ جديدةٍ تتشكل من خلالها ذاتيتنا لنصبح أشخاصاً آخرين.

ســـوف يتناول هذا البحث مفهوم الزمن عند الفيلســـوف جيل دولوز بشـــكل عام ويركز بتفصـــيلٍ أكثر علي بلورات الزمن التي استخدمها دولوز في توضيح الزمن السينمائي بوصفها نموذجاً لدراسة تشكل الذاتية الإنسانية.

1.1 مشكلة الدراسة:

ينصبُّ هذا البحث على دراسة مفهوم الزمن عند الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز، والذي يعتبر مفهوماً جوهرياً في أطروحته الرئيسية الاختلاف والتكرار حيث طور دولوز مفهوما جديداُ للزمن يجمع بين زمن العادة عند هيوم وزمن الذاكرة عند برغسون والعود الأبدي عند نتشــة ليصــل في النهاية إلى توليف جديد يتناغم مع فلسـفته التي ترفض ثبات الهوية ووحدة الأنا وتؤمن بالاختلاف والتكرار، ولكن ليس تكرار المتشــابه وإنما تكرار الاختلاف، فيكون بذلك الزمن ليس مفهوما ثابتاً وخطيًّاً، بل عمليةٌ مســتمرةٌ تتضــمن التغير والتحول، هذا المفهوم الجديد للزمن وللهوية عند دولوز يضــعنا أما اشــكالية بحثية تتلخص بالســؤال الآتي: كيف يؤثر الزمن في تشكيل الذاتية الإنسـانية وهل يمكن اسـتخدام مفهوم بلورات الزمن الذي اسـتخدمه دولوز في دراسـته حول السـينما لتوضـيح تشـكل الذاتية الإنسانية عبر الزمن؟

1.2 أهداف الدراسة:

تحاول الدراسة الإجابة عن جملة من التساؤلات، منها:

1. كيف يعيد دولوز صياغة مفهوم جديد للزمن بعيداً عن النظرة التقليدية التي كان سائدة عبر تاريخ الفلسفة؟
2. ماهي العلاقة بين الحاضر والماضي والمستقبل في نظرية دولوز للزمن؟
3. هل يمكن اعتماد بلورات الزمن كنموذج لدراسة تأثير الزمن في الذات الإنسانية كما هو الحال في السينما؟
4. ماهي العلاقة بين الافتراضي والمتحقق داخل البلورة الزمنية وكيف تسهم في تشكل الذاتية؟
5. هل يمكن أن يكون هناك تشابه بين تصور دولوز للزمن وبين تصور الزمن في الفيزياء الكمومية؟

1.3 أهمية الدراسة:

تأتي أهمية هذا البحث من أهمية الموضوع الذي يبحث فيه وانعكاسه بشكل مباشر على حياة الإنسان، وذلك من خلال محاولة تقديم فهم أعمق لصيرورة تشكل الذات الإنسانية في الزمن بكل ما فيها من تعقيدات بعيداً عن النظرة التقليدية التي كانت تتعامل معها كشيء ثابت، ينتقل في الزمن من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، هذا الفهم الجديد– الذي يجعل من البلورة الزمنية عبارةً عن توليفٍ زمني تجتمع فيه الأزمنة الثلاثة– يفتح آفاق واسعة أمام الفكر الفلسفي في تناوله للزمن، وتأثيره على حياتنا اليومية من جميع النواحي الثقافية، والاجتماعية، كما تفسح المجال لدراسة الفن والأدب بطرق مختلفة.

1.3 الدراسات السابقة:

وجدنا بعض الأبحاث التي تتناول موضوع الزمن عند دولوز ومنها:

– بحث بعنوان (الزمن والهوية في السينما المعاصرة– قراءة دولوزية) منشور في مجلة الآداب العالمية – بغداد – العام 2021، للباحثة زينب العبيدي، تناول هذا البحث تطبيق نظرية دولوز (الصورة – الزمن) على أفلام عربية، ولم يتطرق هذا البحث إلى دور الزمن في تشكيل الذاتية البشرية خارج إطار السينما، بينما تناول بحثنا مفهوم بلورات الزمن في السينما وإمكانية استخدامها في فهم تشكل الذاتية البشرية.

– بحث بعنوان (التكرار الاختلافي: قراءة في فلسفة جيل دولوز) للباحث عبد الله الخليفي ـ الدوحة ـ دار روزا للنشر ـ 2017، ركز هذا البحث على مفهوم الزمن الضائع والزمن المُستعاد في تشكيل الهوية، وناقش البحث موضوع الذاكرة اللاواعية التي تستحضر الماضي بشكل مختلف، أي عملية اختراع وإبداع للزمن، فهو ليس ذاكرة بل علامة، بينما ركز بحثنا على توليفات الزمن الثلاثة وعلى بلورات الزمن بصفتها حالة تكثيف تجمع كل توليفات الزمن في حلقة واحدة تجسدها البلورة بالإضافة إلى أثر البلورات في تشكيل الذات البشرية.

– كما وجدنا مجموعة أبحاث تتناول موضوع الزمن عند دولوز، ولكنها لا تتقاطع مع الموضوع الرئيسي لبحثنا المتمثل في بلورات الزمن والذاتية البشرية.

1.5 منهج الدراسة:

اعتمد البحث في معالجة هذه العلاقة على المنهج التاريخي والمنهج التحليلي والمنهج التطبيقي؛ حيث تم تقديم السياق التاريخي لمفهوم الزمن عند دولوز، وتحليل المفاهيم الأساسية التي قدمها مثل بلورات الزمن، والذاتية الإنسانية وتطبيق مفهوم بلورات الزمن على تشكيل الذاتية البشرية.

أولاً: الزمن اصطلاحاً:

استخدمت كلمة الدهر، للدلالة على الزمن الأبدي، بينما استخدمت كلمة الزمان، للدلالة على الفترة المحدودة " فقد يكون الزمان شهرين إلى ستة أشهرٍ، أما الدهر فلا ينقطع."(الألوسي، 2005، 19) والزمان اصطلاحاً، هو استمرارية الأحداث وتسلسلها، وعادةً ما ينظر إليه على أنه يتحرك من الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، ويمكن فهمه من أوجهٍ متعددة، مثل الزمان النفسي، والزمان الفيزيائي، والزمان الاجتماعي، والزمن المطلق. وقد تنوعت وجهات نظر الفلاسفة حول الزمن تبعاً لاختلاف مذاهبهم الفلسفية، فهو إما متواصلٌ يمضي دون انقطاع، أو متعاقبٌ بشكلٍ دوريٍ متكرر، أو متناهٍ محدودٍ ببداية ونهاية، أو هو ذاتيٌ يتوقف وجوده على وجود الذات البشرية، ويمكن أن نقدم في السطور الآتية مختصراً لتطور مفهوم الزمن.

ثانياً: التطور التاريخي لمفهوم الزمن:

1.2: مرحلة الفكر الاسطوري:

لم يتعامل الإنسان القديم مع الزمن بصفته موضوعاً مستقلاً عن غيره من الموضوعات التي تملأ حياته اليومية، حيث كان الزمن أحد الركائز الأساسية التي تشكل رؤية الإنسان للعالم والوجود، لكنه يختلف جذريا عن الفهم الحديث للزمن، فإدراكه للزمن كان مضمراً في علاقته المباشرة مع الطبيعة، بكل ما تشمله من حالات التبدل والتغير، والكثير من الأحداث التي تدل على تدفق الزمن، وحين حاول الإنسان تفسير هذه الظواهر فسرها ضمن سياق الإطار الفكري السائد آنذاك، المتمثل بالتفكير الأسطوري ويمكن تحديد خصائص وسمات عامة للزمن في هذه المرحلة:

1.1.2 الزمن الدائري المتكرر:

يرتبط الزمن في الفكر الاسطوري بالطبيعة والدورات الكونية (الفصول، الولادة والموت، الشروق والغروب) فالأحداث لا تنتهي بل تتجدد باستمرار مثل قصص الخلق التي تعاد كل عام عبر الطقوس، كما يعاد في الاسطورة المصرية القديمة احياء قصة موت وبعث أوزيريس سنويا مع فيضان نهر النيل.

2.1.2 الزمن زمن البدايات:

حيث كانت الأسطورة تجسد الزمن الأصلي لحظة الخلق الأولى التي تحتوي على النموذج الكامل للوجود، حيث يتم إعادة الاتصال بها عبر الطقوس، فالأحداث ليست ماضية وإنما حاضرة دائما في اللاوعي الجمعي.

3.1.2 الزمن ككيان متجسد:

حيث تعامل الفكر الأسطوري مع الأحداث بصيغةٍ دراميةٍ انطلاقاً من كيفيةٍ حسيةٍ مجسمةٍ، فكانت الظواهر تأخذ شكل صراعٍ بين قوتين، مثلاً، قوة النور وقوة الظلام، كما تم تصوير الزمن كإله مثل كرونوس عند اليونان الذي كان يلتهم أبناءه كرمز لاقتراب النهاية.

وقد سعى الإنسان القديم إلى قياس الزمن بطرقٍ عدَّة، فقد استخدام الفراعنة المسلات كساعاتٍ شمسيةٍ لتحديد الوقت، وفي بلاد الرافدين دُوِّنت الأحداث وفق حولياتٍ تبعاً لتصورهم الدوري للزمن، فلم يكن مفهوم الزمن آنذاك مستقلاً بذاته بل كان مضمراً في الظواهر الحسية التي تتعاقب ضمن حياة الإنسان اليومية، فهو زمن لا تاريخي يعيد تشكيل نفسه عبر الطقوس ويُظهر البشر وكأنهم جزء من دورة كونية كبرى.

2.2: مرحلة الفلسفة اليونانية:

ومع تطور الفكر البشري والانتقال إلى مرحلة التفكير الفلسفي بدأ الزمن يأخذ مكانه ضمن المفاهيم التي تعالج مشكلة الوجود، حيث اعتبر الفلاسفة الطبيعيين في اليونان أن الزمان يعبر عن مدة وجود الموجودات، لأن الزمان بطبيعته لا ينفصل عن الوجود، فكانت المدرسة الفيثاغورية تعتبر أن الكون كلٌّ متناغمٌ من الأعداد، فالعدد هو أساس العالم "وكل شيءٍ سوف يعود في نهاية الأمر إلى النظام العددي نفسه" (ولسون،1992، 14) لأن للعالم حركةٌ دوريةٌ تمثلها " السنة الكبرى وهي سنةٌ تستغرق فترةً مقدارها عشرة ألاف عام فيها يظهر العالم وينقضي"(ستيس، 1984، 42) أما في المدرسة الأيلية فقد رفض (بارمنيدس) الحركة والتغيير، لأنهما مرتبطان بالحواس التي تخدعنا أحياناً، لذلك افترض أن الوجود الحقيقي هو الثابت بلا بدايةٍ أو نهايةٍ، وبناءً على ذلك أنكر الزمان والمكان، واعتقد بالوحدة التي لا يمكن أن تتجزأ" فلا يوجد بالنسبة له ماضٍ ولا حاضرٍ ولا مستقبلٍ، إنه حاضرٌ خالدٌ بلا زمان"(ستيس، 1984، 48) وعلى خلاف ذلك افترض " الرواقيون أن الكون يتحرك ديناميكياً في حالةٍ مستمرةٍ، وهذه الاستمرارية

عرفت من خلالها دورة الكون الذي يخضع لحيويةٍ مستمرةٍ لا تموت"(الصديقي، 1995، 15) أي أن العالم يعود مجدداً عند تمام دورته، وبذلك يكون الزمن هو حركة العالم في عودته الأبدية، وفي نفس السياق يقول (هيراقليطس) في أحد شذراته على محيط الدائرة تختلط البداية والنهاية. وبالنتيجة فإن الزمان عند الفلاسفة الطبيعيين هو حركة العالم في عودته الدورية المتكررة، فلم يفصلوا بين الزمان والعالم لأن الذات الفلسفية كانت منهمكةً في دوامة العالم الطبيعي.

ومع السفسطائيين ظهرت فكرة الذاتية من خلال مقولة (بروتاجوراس) الإنسان معيار كل الأشياء هكذا" أصبح الفكر متمركزاً حول الذات "(ستيس، 1984، 101) وذلك مع تأكيدهم على الذات الفردية باعتبارها مصدر الحقيقة. بدأ مفهوم الزمن يتمايز بشكلٍ واضحٍ مع (أفلاطون) الذي ميز بين الزمان الطبيعي المرتبط بالكون المتغير "الذي يمثل صورةً متحركةً للأبدية"(ولسون،1992، 15) وبين زمان المثل المطلق، وهو الثابت غير المتغير، وكأن (أفلاطون) جمع بين فكرة (هيراقليطس) عن الصيرورة والتغيير والتدفق التي تسري في عالم الحس، وبين فكرة (بارمنيدس) التي تتطابق بشكلٍ تقريبيٍ مع فكرة الثبات في عالم المثل، فالزمان مرتبطٌ بالعالم، بينما المثل خارج الزمان أو لا ينطبق عليها الزمان.

ولم يتم التعامل مع الزمن كمشكلةٍ فلسفيةٍ إلا مع (أرسطو) حين تساءل "ما هو الزمان؟ ماهي طبيعته الحقة؟ هذا ما لم توضحه مذاهب أسلافنا، فمنهم من وحّد بينه وبين حركة العالم، وآخرون قالوا بأنه كرّة العالم."(سانتهلير، 1935، 219) وللوصول إلى حقيقة الزمن ربط (أرسطو) بين المادة والحركة والزمان، وبذلك يكون قد أسس للمفهوم العقلاني للزمن. فالزمان ليس هو الحركة نفسها، وإنما هو مقياس الحركة "أو سلسلةٌ عدديةٌ موجودةٌ في تصورنا نحن لأجزاء حركةٍ سابقةٍ وأخرى لاحقةٍ، أي البعد والقبل"(الصديقي، 1995، 10) وبما أن الزمان هو عدّ الحركة فلا بدّ من وجود وعيٍ يدرك هذا الزمن، إذاً إن" خاصتي الزمن هي التغيّر والوعي"(سانتهلير، 1935، 241) لذلك لابد من وجود النفس التي تدرك الزمان، فنظرة (أرسطو) للزمان موضوعيةٌ من جهة ارتباط الزمن بالعالم الطبيعي، وذاتيةٌ من جهة أن وجوده مرهون بوعي النفس له. وبالمجمل يمكن القول أن نظرة "فلاسفة اليونان للزمن كانت عامةً طبيعيةً وليست ذاتية"(بدوي، 1973، 51).

3.2: في العصور الوسطى:

في العصور الوسطى ذات الصبغة الدينية، ارتبط مفهوم الزمن بفكرة خلق الله للعالم، فلم يعد الزمن دائرياً كما كان عند اليونان، بل أصبح خطاً مستقيماً محدوداً بنقطة البداية المتمثلة بلحظة الخلق، ونقطة النهاية المتمثلة في نهاية العالم، لأن الزمان هو زمان الكون وحسب اعتقاد (أوغسطين) إن" في الكون أزمنةٌ ثلاثةٌ: حاضر الماضي، وحاضر الحاضر، وحاضر المستقبل، وهذه الطرق الثلاثة موجودةٌ في عقلنا ولا أرى لها وجوداً إلا فيه، فحاضر الأشياء الماضية هو الذاكرة، وحاضر الأشياء الحاضرة هو الرؤية المباشرة، وحاضر الأشياء المستقبل هو الترقب والانتظار"(إوغسطين، 1991، 254) فتقسيمات الزمان موجودةٌ في العقل فقط، وهنا تظهر بوادر النظرة الذاتية للزمان من حيث أن هذه الأزمنة ليس لها وجوداً الا في عقولنا.

4.2: الفترة الكلاسيكية:

في هذه الفترة سادت نظرية (نيوتنٍ) التي قامت على الصفة المطلقة للزمان والمكان، فقد اعتقد نيوتن أن الزمان والمكان ثابتين مستقلين عن الأشياء المحسوسة "فالزمان هو دفقٌ مطلقٌ قائمٌ بذاته مستقلٌ بطبيعته، عامٌ شاملٌ غير مرتبطٍ بالحركة."(الصديقي، 1995، 26) هذا الزمن المطلق هو الزمن الحقيقي القائم بذاته بمعزلٍ عن أي شيءٍ خارجيٍ، مستمرٌ دون انقطاع، فهو إيقاعٌ كونيٌ ثابتٌ مستقلٌ عن الإدراك الحسي، تخضع له كل الأشياء والموجودات بما فيها الإدراك الحسي نفسه. ورغم من الانتشار الواسع

الذي حققته نظرية (نيوتن) في الفيزياء، إلا أنها واجهت اعتراضاً قوياً من (لبنتز) الذي رأى بأن الزمان لا يمتلك وجوداً قائماً بذاته، فهو مجرد ترتيبٍ للحوادث ليس إلا، فلا وجود له بمعزلٍ عن الأشـــياء" فالزمان هو نظام التوالي وهو إذن لا يقوم إلا في النســـب الموجودة بين أشياء العالم التي تتوالى، أي أنه تابعٌ للأشياء وليس سابقاً عليها"(بدوي، 1973، 102) فقد كانت نظرة ليبنتز للزمان ذاتيةً من حيث اعتبر أن "الزمان لا يتولد فينا إلا بمناسبة الإدراكات أو التغيرات."(بدوي، 1973، 102).

5.2: مرحلة الفلسفة الحديثة:

لم ينظر (كانت) إلى الزمان بوصفه خاصيةً من خصائص العالم الخارجي، ولا بوصفه باطناً في الأشياء كصفةٍ موضوعيةٍ لها، وإنما اعتبره مقولةً من مقولات الذهن، فهو الشـــرط القبلي لكل الظواهر أياً كانت "فالزمان لا يقوم على الظواهر، بل الظواهر تقوم على الزمان، وبغير الزمان لا يتصور تحقق الظواهر أي أن الزمان قبليٌ ضروريٌ لكل حركةٍ حسيةٍ"(بدوي، 1973، 105) والأشياء بمجرد أن تصـبح مدركةً تظهر ضـمن إطار الزمان، فنحن نعرف الأشـياء كما تبدو لنا ولا يمكن أن نعرفها بذاتها، فنظرة (كانت) للزمان ذاتيةٌ خالصـــةٌ وبذلك "يوافق (هيوم) على أن الزمان والمكان مجردان من المحتوى الموضـــوعي فهما مقولتان ذاتيتان" (الصديقي، 1995، 70).

كما اعتبر (نتشة)، أن الزمن مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالإرادة، فهي التي تمنحه اتجاهه ومعناه، فالزمن ليس إطاراً سلبياً للأحداث، وإنما قوةٌ إبداعيةٌ تسـمح لنا بخلق تجارب جديدةً وأن نصـبح أشـخاصـاً مختلفين و"الحقيقة أننا في نموٍ، نخلع عنّا قشـوراً باليةً في تغييرٍ دائمٍ، نكتسب جلداً جديداً كل ربيع ..... ولسنا ننمو في مكانٍ واحدٍ فقط، ولكن في كل مكانٍ لا في اتجاهٍ واحدٍ، بل بقدر ما ننمو إلى الأعلى إلى الخارج ننمو إلى الداخل وإلى الأسـفل"(نيتشـه، 21،1993) ومن هنا رفض (نيتشـه) فكرة الزمن الخطي، وأكد أن الزمن دائريٌ بلا بدايةٍ أو نهايةٍ يتكرر على الدوام. ويمكن القول إن الوعي بالزمان تغير تغيراً حاسماً، تبعاً لتغير البنية المعرفية في الفلسفة الحديثة التي احتلت فيها الذات المقولة المحورية، وتحولت النظرة الفلسفية للزمن إلى نظرةٍ ذاتيةٍ بامتياز، أما الزمن الفيزيائي فقد حافظ على موضوعيته مع نظرية (نيوتن).

6.2: مرحلة الفلسفة المعاصرة:

شـــهدت هذه المرحلة ظهور تيارات تعارض النزعة المادية وتقف في وجه محاولات تشـــيئ الإنســـان، فكان التيار الروحي ممثلاً بالفيلسوف الفرنسي (هنري برغسون) صاحب الفلسفة الحيوية، التي تجعل من الزمن موضوعاً جوهرياً بالنسبة للوجود وللحياة ككل وبذلك لا يكون الزمن مفهوماً مجرداً بل هو مُنطلقٌ مع الحياة في تطورها المبدع، لذلك ميز (برغسون) بين نوعين من الزمن أولهما الزمن الموضـوعي الرياضـي، وهو زمنٌ كميٌ يمكن قياسـه من خلال الأدوات، ويمثل زمناً خطياً ينقسـم إلى فتراتٍ محددةٍ مدركةٍ بالعقل الذي يتقن فن التعامل مع المادة، وقد اعتبره (برغسون) زمنٌ زائفٌ إذا ما قورن بالنوع الثاني، الذي يمثل الزمن الحقيقي زمن الديمومة، الزمن الداخلي النفسي للفرد، الذي يتجلى في تجربته الذاتية ويعبر عن الكيفية التي يعيش فيها الإنسان الزمن، لذلك فهو غير قابلٍ للقياس بنفس الطريقة التي يقاس بها الزمن الرياضي، لأنه أكثر تفاعلاً مع العواطف والوعي، وإن كان الزمن الأول يدرك بالعقل فإن هذا الأخير لا يدرك إلا بواسـطة الحدس، وبذلك يكون برغسـون قد" اكتشـف في الديمومة المعنى الإيجابي للزمن، ورأى فيها مصـــدر الوجود الحقيقي"(الخولي،2014، 55) فهي من وجهة نظره الأكثر أهميةً لفهم التجربة الإنســـانية بالكامل، حيث أن تجاربنا وتذكرنا وتوقعاتنا تشكل كيفية إدراكنا للوقت.

فالزمان عند (برغسون) هو الديمومة الواقعية، والتدفق والسيلان دون توقفٍ "وبذلك يكون الزمان هو المادة التي صَنعَ منها الواقع ذاته، لأنه كلٌّ ولا انفصال بين الآنات فيه (الألوسي، 2005، 71) وهو ليس شيء مضاف إلى الحياة وإنما هو نسيج الحياة التي لا يمكن أن نتوقع مسيرها ونتائجها على غرار الأشياء المادية التي يتناولها العلم، لأنها قدرةٌ دائمةٌ على الخلق والإبداع، ومن هنا عارض (برغسون) النزعة الميكانيكية العقلية وسار على نهج الحياة اللاعقلاني، الذي يفترض أن الزمان الطبيعي زائف، والحقيقة تكمن في الزمن النفسي الداخلي الذاتي، الذي يمثل نسيج الوعي، ونسيج الحياة، ونسيج الواقع.

ثالثاً: مفهوم الزمن عند دولوز:

كان اهتمام دولوز بالزمن نابعاً من اهتمامه بالأنطولوجيا، فالزمن يعتبر القاعدة الأساسية التي تستند إليها كل أنطولوجيا. ينظر دولوز إلى الزمن، كما هو حال فلسفته، كتعددٍ وتوليفٍ، متشعبٍ في مستوياتٍ وأبعادٍ مختلفةٍ، فهو مجالٌ مفتوحٌ على كل الامكانيات. وقد ساق دولوز مفهوم الزمن في ثلاث تراكيبَ، تشكل في مجموعها مفهوم الزمن، هذه" التراكيب غير تراكميةٍ ولا تكامليةٍ، بل متقابلةٌ ومتنافرةٌ ومتزامنةٌ"(حدجامي، 2012، 188) إن هذه التركيبات توحي بتسلسلٍ منطقي، حيث أن الركيب الأول، هو توليف العادة، التي ترتبط بالزمن الحاضر اليومي، والتركيب الثاني هو توليف الذاكرة، التي ترتبط بالماضي المحض، والتركيب الثالث هو الزمن الفارغ أو الزمن المحض. في الصفحات الآتية سنقدم توضيحاً مختصراً لكل تركيب.

1.3: التركيب الأول للزمن (توليف العادة):

زمن العادة عند دولوز هو التوليف المتعلق بالحياة اليومية، فهو الحاضر الذي ينعكس في الإدراك الحسي كحالةٍ من الاستمرارية يمرُّ فيها الحاضر فقط، ويكون الماضي تجميعاً للأزمنة السابقة، أما المستقبل فهو ترقُّب وانتظارٌ، وبذلك " يكون الماضي والمستقبل بعدين لهذا الحاضر" (Deleuzs,1986,71) فهذا الزمن لا يمكن أن يُدرك الماضي بذاته، لأنه الزمن المتفرد للإنسان، فهو يحدث في الوعي، وينفعل به من خلال التأمل والادغام الذي يشكل ديمومةً معينةً لحاضرٍ ينقضي ويمضي، فإدغام اللحظات المتعاقبة معاً، يكوّن تتابع الزمن واستمراريته في مستوياتٍ متعددة، سواء كانت على مستوى التوليف الإدراكي أو على مستوى التوليف العضوي "فهناك اندغامٌ للتراب والرطوبة نسميه حنطةً وهذا الاندغام هو التأمل والإشباع الذاتي من هذا التأمل"(Deleuzs,1986,73) وفي العضوية الإنسانية يظهر المستقبل جلياً في الحاجة بصفتها انتظاراً ويظهر الماضي وكأنه مخزوناً في الجينات الوراثية، وفي هذا الزمن تتشكل الأنا من خلال اندغام الأنوات الصغيرة في أناً واحدةً، تدرك الزمن الحاضر من خلال العادة التي تعتبر" في ماهيتها إدغاما"(دولوز،2009، 177) فهذا الزمن عند دولوز هو الزمن الخطي حيث تعتمد الحياة النفسية و العضوية إلى العادة التي تتمثل في الحاضر الحي.

2.3: التركيب الثاني للزمن (الذاكرة الخالصة):

لا بد للحاضر الذي لا يكف عن الحركة والانقضاء، من زمنٍ آخر يستند إليه، يكون بمثابة الوعاء الذي يتحرك فيه، فالحاضر عاجزٌ عن التحول إلى ماضٍ إذا لم يتمثل الماضي في ذاته، لأن الماضي لا يتقدم فيه إلا كبعدٍ له، ومن هنا فهو لا يمكن أن يتمثل ذاته كحاضرٍ أيضاً، لذلك لابد من ماضٍ قبليٍ محض، يمكّن هذا الحاضر من أن يكون حاضراً، وهذا لا يتم إلا بوجود ماضٍ أصليٍ لم يحضر أبداً، يتعايش افتراضياً مع الحاضر" فليس الحاضر سوى ترهينٌ لماضٍ أعم، ماضٍ يمكّن الحاضر من أن يمر، ويسمح بالتالي للأزمنة أن تتعاقب"(حدجامي،2012، 190) وبذلك يكون التركيب الثاني للزمن عند دولوز، مطابقٌ لزمن الديمومة عند برغسون، الذي يفترض أن كل حاضرٍ، ليس غير الماضي في وضعيته الأكثر اندغاماً، فالماضي لا يسمح بمرور

الحاضـر إلا إذا أقبل حاضـراً جديداً، وهو ذاته ماضٍ لا يمر ولا يقبل، وإذا كان زمن العادة زمناً خطياً فإن هذا التركيب يأخذ خطاً دائرياً. تمثل "الذاكرة التوليف الأسـاسـي للزمن، الذي يكّون وجود الماضـي ويجعل الحاضـر يمضـي"(دولوز، 2009، 182) فهو تصـور الحاضـر القديم في الراهن، ليس بوصـفهما آنين متعاقبين على خط زمنٍ واحدٍ، وإنما باعتبار الراهن يتضـمن بعداً إضـافياً، يصـور من خلاله القديم كما يتصـور ذاته. فالماضـي ذاكرةٌ عامةٌ تتعايش فيها كل الأزمنة في جميع مسـتوياتها، وتبعاً لذلك فهو بمثابة التأسيس المتعالي الذي يستند إليه الزمن.

3.3: التركيب الثالث للزمن:

يمثل الحلقة الثالثة للزمن عند دولوز، يعتبر بمثابة الذروة، أو المحصلة النهائية لسلسلة الزمن، وليس هذا على سبيل التعاقب أو التسلسل كما ذكرنا سابقاً، وإنما على سيبل الشمولية، فإذا كان الزمن الأول الحاضر، زمن العادة، والزمن الثاني الماضي المحض، زمن الذاكرة العامة، فإن الزمن الثالث هو المستقبل، زمن الكاووس الذي يجمع خط الحاضر المستقيم، ودائرة الماضي المحض، في حركة لولبية أشمل وأعم، هي حركة الصيرورة العامة. يكشف هذا الزمن عن نفسه كشكلٍ فارغٍ، ونظامٍ محضٍ للزمن، أنه شكل التغير الذي لا يتغير، وعلى عكس الزمنين السابقين فهو ليس زمن الأساس ولا التأسيس، بل هو زمن الحل والهدم، الذي ينحل فيه كل شيء حتى الذات. ينطلق دولوز في معالجته لهذا الزمن من نقد (كانت) للكوجيتو الديكارتي الذي "انتقل من الوجود غير المتعين إلى الوجود المتعين دون أن يبرر ذلك. لذلك فإن (كانت) يضيف قيمة منطقية ثالثة هي القابل للتعُّين"(نعيم،231،2021) هذه الطرف القابل للتعين هو الزمن، ثم جاء هولدرلين ليكتشف فراغ الزمن المحض، هنا أدخل دولوز تعديلاتٍ جوهريةٍ على الأنا الديكارتي لصبح أنا فاعلة وأنا منفعلة، وحرر كانت من ضمانة الوعي، وأدخل العود الأبدي النتشوي على مفهوم الزمن عند هولدرين، ليخلص في النهاية إلى تصور الزمن في التركيب الثالث" الذي يعتبر نوعاً من التوليف بين الأبدية والتاريخ في تركيبٍ ثالثٍ بينهما، تركيبٌ يكسر تتالي الكرونوس ويحوله إلى زمنٍ للعبور"(حدجامي، 2012، 193) فهو زمنٌ متحررٌ من كلِّ الحدود، و"يتجاوز الأساس والتأسيس إلى لا أساس الكلي، الذي يدور حول ذاته، ولا يعيد إلا المستقبل"(دولوز، 2009، 201) فما يعود هو الاختلافات من حيث هي تكراراتٌ في عالم الشواش اللامتناهي، الذي تتعايش فيه كلُّ الأزمنة، زمن العادة والتأمل والإدغام بصفته الحاضر المكرِّر، وزمن الديمومة والذاكرة وهو الماضي الذي يمثل التكرار عينه، والعود الأبدي كتكرار للمستقبل" فالعود الأبدي دائرةٌ، يكون الاختلاف في المركز و(ال عينه) فقط في المحيط، دائرةٌ في كلِّ لحظةٍ مزاحةٍ عن مركزها، ومتعرجةٍ بشكل ثابت ولا تدور إلا حول اللا متساوي (دولوز، 140،2009).

و"تظهر هذه التراكيب الثلاثة فلسـفة دولوز للزمن" (Williams.2013. 106) وتشـكل عند دولوز التوليف العميق للزمن الذي تتعايش فيه هذه الازمنة معاً فالحاضـر لا يتلو الماضـي وانما هو ترهن لهذا الماضـي من حيث أن الحاضـر هو زمن العادة والحياة اليومية أما الماضـي زمن الذاكرة المحض زمن الديمومة فافتراضـية الذاكرة تترهن في العادة ثم يأتي زمن المسـتقبل الأعم والأشـمل الذي تنحل فيه كل الأشـياء العادة والذاكرة، لأنه يتملك أبعاد الماضـي والحاضـر، فهو يعمل وفق منطق التكرار لذلك فهو يشـمل الراهن والتاريخ معاً ولكن لا يمكن التنبؤ به من خلال الراهن لأنه افتراض يترهن وليس إمكان يتحقق، فحسـب دولوز الممكن يمتلك كل سمات الوجود أما الافتراض فهو ما لا يمكن التنبؤ فيما إذا كان سوف يترهن أو أنه سيبقى افتراض وبما انه افتراض فهو ليس زمن دائري تتكر فيه الأشـياء لتعود إلى نفس النقطة التي بدأت كترار المتشـابه وإنما هو زمن لولبي تعود الأشـياء فيه وفق منطق

الحدث وتباينات الشدة فلا يعود إلا الاختلاف ليجمع الحاضر مع الماضي في المستقبل "ويسير في غير ما وجهه لولباً كونياً يلتف على ذاته بالعود الابدي"(حدجامي2012 . 194).

رابعاً: بلورات الزمن:

إذا كان (كانت) قد قلب المفهوم الأرسطي للحركة، عندما افترض أن الزمن لم يعد مرتبطاً بالحركة التي يقيسها، بل إن الحركة مرتبطةً بالزمن الذي يشترطها، فإن (دولوز) كذلك قلب العلاقة بين الحركة والزمن، عندما افترض أن سينما الصورة (الزمن) تحل محل سينما الصورة (الحركة) وذلك من خلال إظهار أن الزمن هو الذي يشكل تنوعات التجربة السينمائية بما فيها الحركة، وبذلك أصبح الزمن يشغل المكان الذي كانت تملؤه الحركة سابقاً.

وفي هذا الإطار يحدد دولوز نظامين للصور السينمائية، نظام عضوي، ونظام بلوري، أما ما يتعلق بالتوصيف العضوي فهو مستقل عن موضوعة، ويتعلق بالحركة، ويعتمد على سرد خطي يتحرك عبر سلسلة من المواقف الحسية الحركية يكون الزمن فيها تابع للحركة بصفته عامل ثانوي.

أما التوصيف البلوري ففيه يكف الزمن عن أن يكون تابع للحركة ويصبح بدلاً من ذلك المحور الرئيسي الذي تتداخل فيه كل الأزمنة (الماضي والحاضر والمستقبل) في صورةٍ واحدةٍ تحيل إلى أوضاعٍ بصريةٍ منفصلةٍ عن امتدادها الحركي لتشكل بلورةً زمنيةً تخلقُ واقعاً متعدد الطبقات، يتداخل فيه الافتراضي والمتخيل والراهن في حلقة واحدة، ويسعى كل مهنا نحو الآخر، لدرجةٍ يصعب معها التمييز بينها.

وهذا الالتحام بين الصورة الراهنة وصورتها الافتراضية أو الصورة الحقيقية والصورة المتخيلة والتي لا يمكن التميز بينهما هو ما يشكل الصورة الكريستال التي تُظهر الزمن الخالص، فلم يعد الزمن مجرد إطار للأحداث بل أصبح قوةٌ فعالةٌ تعيد تشكيل الواقع عبر تفعُّل العلاقة بين الواقعي والافتراضي.

وهذه الحالة من اللاتمايز بين المتخيل والحقيقي تتسرب إلى السرد البلوري وهو سرد يحطم التسلسل السببي التقليدي، ويعتمد التشظي الزمني الذي تتعايش فيه طبقاتٍ زمنيةٍ متعددةٍ في نفس المشهد" حيث يفقد الواقع الملموس ترابطاته الحسية ويكف عن تنظيم نفسة"(دولوز ،209،2015) عندها تختفي الصورة غير المباشرة للزمن التي كانت ترتبط بالحركة، ويتحول الزمن إلى صورة مباشرة تَنتُج عنها الحركة، وبذلك يصبح هناك صورٌ للزمن متعددةٌ على عد الأوضاع البصرية والصوتية.

وهذا السرد يضعنا أمام سؤال ماهي علاقة الحقيقة بالزمن؟ فالزمن قد شكل أزمة لمفهوم الحقيقة، وذلك بسبب طبيعة الزمن نفسه وخاصةً أزمنة المستقبل، هنا يستعين دولوز بفكرة ليبنيز الذي افترض أن الحقيقة يمكن أن تحدث ويمكن أن لا تحدث، ولكن في عالمين مختلفين، وهذين العالمين ممكنين ولكنهما ليس متمانعين، وحسب ليبنيز إن المتمانع هو الذي ينبثق من الممكن وليس من المستحيل، وبذلك يمكن أن يكون الماضي حقيقياً دون أن يكون حقيقياً بالضرورة.

وحسب دولوز إن هذه المعادلة ينتج عنها وضع جديد يكفُّ فيه السرد عن أن يكون متوافقاً مع الواقع، أي يكفُّ عن طلب الحقيقة، ويصبح مزوراً بامتياز، فإذا كان التوصيف البلوري لا يميز بين الواقعي والمتخيل فإن السرد التضليلي الذي يصاحبه يخطو خطوةً إضافيةً ويطرح على الحاضر تبايناً يتعذر شرحه، وعلى الماضي بدائل لا يمكن أنت تبتَّ في الحقيقي، هذا ما يسميه دولوز قوة الزيف، وهي حسب توصيفه تطرح تزامناً لأزمنة حاضرة غير متمانعة أو أنها تطرح تعايشاً بين أزمنة الماضي التي ليست بالضرورة

حقيقية وهكذا يبدو " أن تشـــكُّل الكريســـتال، وقوة الزمن، وقدرة الزيف، متكاملةٌ تماماً وتنطوي على الترابطات الجديدة للصـــور." (دولوز ،214،2015).

وبما أن البيئة السـينما تحاكي البيئة الواقعية للحياة الإنسـانية التي يعتبر الزمن عاملاً أسـاسـياً في تكوينها، فلا بد أنه من الممكن إسقاط المفاهيم التي ابتكرها دولوز لتوضيح أهمية الزمن في صياغة البيئة السينمائية على مجال الذاتية الإنسانية.

1.4: الزمن كبلورة:

ولتوضـيح بنية الزمن في السـينما، يسـتعين دولوز بمفهوم بلورات الزمن، التي تمثل اندماجاً مكثفاً لمجموعةٍ من الصـور، ضـمن علاقاتٍ زمنيةٍ وتفاعلاتٍ وحركاتٍ واهتزازاتٍ مختلفةٍ بين هذه الصـــور والأحداث التي تليها أو تتزامن معها فإن" للصـــورة الحالية صورة افتراضية تكون لها كصنو أو كانعكاس وبعبارة برغسونية نقول إن الشيء الواقعي ينعكس في صورةٍ مرآتيه مثلما ينعكس في الشيء الافتراضي الذي يغلف الواقع أو يعكسه: فينهما اندماج كامل." (دولوز .2015.116).

والبلورة حسـب دولوز تمثل دارةً مغلقةً بين ما هو فعلي متحقق وبين ما هو افتراضـي غير متحقق بعد، ولكنه يمكن أن يتحول إلى فعلي كما يمكن للمتحقق أن يتحول إلى افتراضـي، هذا ما يظهر في الأفلام السينمائية من خلال اللقطات المتكررة أو المرايا، حيث يتداخل الزمن الماضـي مع الزمن الحاضـر، وكأن الزمن يتبلور في لحظةٍ واحدةٍ تجتمع فيها كل الأزمنة معاً في دائرةٍ واحدةٍ، تذوب فيها الحدود بين الحاضر والماضي، فالماضي لا يختفي وإنما يبقى حاضراً إلى جانب الحاضر كطيفٍ افتراضي، ومن هذه الناحية فإن البلورة لا تمثل كياناً ثابتاً وإنما هي عبارةٌ عن حلقةٍ تفاعليةٍ تتكون من وجهين، إحداهما الوجه الواقعي الملموس المتحقق، وهو بمثابة الحاضـــر الراهن، والوجه الآخر هو الوجه الافتراضـــي الذي يمثل مخزن الإمكانيات اللامحدودة بكل ما فيها من ذكرياتٍ وصـــورٍ متخيلةٍ غير متحققة، ولو تســـاءلنا عن طبيعة العلاقات داخل البلورة يظهر لدينا أنها خارجة عن حدود الســببية أو نمط العلاقات الهرمية لأنها مبنيةٌ على علاقاتٍ تفاعليةٍ تبادليةٍ تحكمها عدَّة مبادئ، مثل التولد المتبادل، وفيه ينبثق الفعلي من الافتراضـــي، وفي نفس الوقت يغذي الافتراضـــي الفعلي بإمكاناتٍ جديدةٍ، ولذلك لا يمكن تحقيق الفصـــل الكامل بين الافتراضـــي والفعلي، لأنهما وجهان لعملةٍ واحدةٍ يتبادلان المواقع بشـــكل ديناميكي بحيث يشـــكلان بنيةً البلورةً الزمنيةً، التي تشـــبه إلى حد ما البنية البلورية للمادة الجامدة، التي تتكون من تراصّ الذرات مع بعضـــها البعض، ضـــمن شـــروطٍ بيئيةٍ معينةٍ لتشـــكل بلورةً ماديةً صلبةً، يدخل فيها الزمن كشرطٍ أساسيٍ لإمكان التشكّل، وكأن البلورة الزمنية ،هي حالة خروج صورةٍ واضحةٍ من السحابة الضبابية التي تكونها الصـور الافتراضـية، وذلك ضـمن شـروطٍ معينة، وبتفاعل عواملٍ داخليةٍ وخارجيةٍ، بحيث تشـكل نقطةً محوريةً لحدثٍ راهن. وهنا يترهن في الذهن السؤال التالي، كيف تتشكل البلورة؟

2.4: آلية تشكل البلورة الزمنية:

يبدأ (دولوز) معالجته لموضـوع السينما بالقول: "لا تقدم السينما صـوراً فقط بل تحيطها بعالم"(دولوز ،2015، 115) فما يظهر في الفلم السينمائي ليس صوراً مجردةً، تُعرض بتتابعٍ حركيٍ، لتسرد قصة الفلم، وإنما كل صورةٍ بطبيعتها محاطةٍ بمجموعةٍ من الصور، تضـم صـوراً (حاليةً، ذكرى، حلم، عالم) تتدرج بالعمق تبعاً لطبيعة ارتباطها بموضـوع الصـورة المتحققة، وتشكل هذه الصـور دوائر تتوازى مع طبقات الواقع، تتدرج في الاتساع، بحيث تتوسع كلما ابتعدت عن الصورة المتمركزة في بؤرة الحدث، فكل عنصرٍ متحققٍ

"فعليٍ يحيط ذاته بضبابٍ من الصور الكمونية[1]"(دولوز، بارني،1999، 189) وكل كمونيةٍ من هذه الكمونات تحيط ذاتها أيضاً بغلافٍ كمونيٍ خاصٍ بها، إلى مالا نهاية، وهذا أيضا ينطبق على الإدراك الفعلي الذي يحيط ذاته كذلك بسحابةٍ من الصور الكمونية، تضم ذكرياتٍ مختلفة الأنواع ، تتشكل وتنفك وتتحرك وتتسع على مسار تلك الدوائر، يطلق (دولوز) عليها اسم "كمونيةً لأنها تنحصر إطار اللاوعي وعندما تتكاثر هذه الصور الكمونية وفق تراتبية الدوائر المتراصفة على شكل مخروطٍ مقلوبٍ، راسه في الأسفل وقاعدته باتجاه الأعلى ــ وفق نموذج برغسون ـ فإنها تستوعب كامل البيئة الزمنية في اللحظة الراهنة. فاللحظة الراهنة تشمل الفعلي المتحقق وصورته الكمونية الافتراضية، التي تحوي إمكانية تحققها ضمن شروط الزمن.

تكوّن أصغر الدوائر، حداً داخلياً يربط الصورة الفعلية بنظيرتها الافتراضية فقط، لتشكل نقطةً مكثفةً و"لكنها نقطةٌ ماديةٌ لا تخلو من عناصر متمايزةٍ كما هي الذرّة عند ابيقور."(دولوز،2015، 115) يستند دولوز إلى افتراض برغسون، بأن الشيء الواقعي ينعكس في صورةٍ مرآتيةٍ مثلما ينعكس في الشيء الكموني، أي أن الافتراضي يمثل المرآة التي ينعكس عليها الواقع، ولكن لا بد للعنصر الافتراضي من أن يتحقق، وعندها يصبح العنصر المتحقق نفسه افتراضياً، ويستمر التبادل بينهما ضمن هذه الحلقة المتراصّة حيث "يكون الموضوع والصورة هنا كمونيين ويشكلان مستوى المحايثة، الذي يذوب فيه الموضوع الفعلي، وحينها يكون الفعلي قد سلك طريق التفعل"(دولوز، بارني،1999، 190) وأصبح متمايزاً كون التفعّل هو التمييز في حين أن الفعلي هو الفردية، وكأن الفعلي يحاول الانفلات من مساره العشوائي، بينما التفعّل يسعى إلى إلحاقه بمسار محدد، فالأشياء عند (دولوز) ليست عناصر ثابتةً وفق نظامٍ محددٍ مسبقاً، وليس العالم كيانات مستقلةٌ، بل هو دفقٌ وتركيبٌ دائم التحقق، و"الموجود يتحدد عنده في كونه حدثاً أو أثراً يتقدم إلينا في صورة علامةٍ تحرض الفكر وتحثه على التفكير"(حدجامي، 2012، 237) وتبعاً لذلك تكون الذات عند دولوز تركيبٌ يتكون من آلاف الذوات التي تتناوب بين الراهن والافتراضي، وتنحل وتتركب في بلورات زمانية تتحقق في لحظةٍ متفردة فعندما يقترب الكموني من التفعّل، تتقلص الدوائر، ويتبادل الفعلي والافتراضي، ومن خلال هذا التبادل الدائم تتبلور صورةٌ ذات وجهين، أحدهما افتراضي، والآخر متحقق، "فالافتراضي والمتحقق هما قفاً ووجهً قابلان لأن يُعكسا"(دولوز، 2015، 117) في البلورة التي تمثل بيئةً زمنيةً متكاملةً، تتكثف فيها مكونات اللحظة الراهنة في حدثٍ يتحدد كمعطىً تتشكل من خلاله الذات، كونها تركيبٌ منفعلٌ يتحد بالمعطى، كما بيَّن (هيوم). وذلك من خلال الصور الضبابية التي تحيط بالإدراك، والتي تتقلص في حدها الداخلي إلى صورةٍ افتراضيةٍ وصورةٍ متحققةٍ في الوعي، بينما تكوَّن الصور الافتراضية ودوائرها المتوسعة في مجال اللاوعي.

3.4: أشكال العلاقة بين وجهي البلورة:

يؤكد (دولوز) أنه من الصعب التميز بين وجهي البلورة، وذلك بسبب حالة الانتقال والتبادل بينهما، ففي الحلقة الداخلية، يتم التبادل بين وجهي البلورة بشكل دائم لدرجة يصعب معها التمييز بين الوجهين المتحقق والافتراضي "اللذين لا يكفان عن التبادل، هما متمايزان ولكن يتعذر تبيانهما"(دولوز،2015،119) فعندما يتحول الافتراضي إلى راهن أو متفعَّل فإنه يصبح أكثر نقاءً ووضوحاً بينما ينتقل الوجه المتفعِّل ليأخذ مكان الافتراضي، وبالتالي يصبح أقل وضوحا هذا أشبه بالفرق بين الانطباعات والأفكار عند هيوم وبذلك تصبح الحالة بين الراهن والافتراضي عبارة عن علاقة بين وجهين أحدهما رائق والآخر كامد، أي الوجه الناصع الواضح

[1] الصورة الكمونية وهي الوجه الاخر للفعلي وتحمل صفة الكمون لأنها تحمل امكانية التحقق فهي بمثابة الذكريات التي تحيط بالحدث الفعلي وتمثل تفاعل الماضي والمستقبل مع الحاضر فهي تؤثر بالفعلي وتحمل امكانية التحقق لتصبح فعلية وعندها تتحول الصورة الفعلية إلى صورة كمونية.

والوجه الكامد المظلم، مثالاً على ذلك صورة السفينة، التي تمثل صورةً بلوريةً[2]، يكون سطح السفينة أحد وجهي البلورة، وهو الوجه المتحقق الذي يستحوذ على الركاب وكل ما يدور على السطح، وكأنه خشبة مسرحٍ تُظهر الوجه الشفاف الرائق للبلورة، أما الجزء السفلي من السفينة، المغمور بالماء، يمثل الوجه الكامد، هذه هي حلقة الصورتين الافتراضيتين اللتين لا تنفكان عن التفاعل.

ولكن هناك شكلٌ أخر من أشكال العلاقة بين الوجهين تتمثل في وجود وجهٍ يحمل إمكانية التطور لينقل البلورة إلى وضع جديد ففي مثال السفينة هناك صورةٌ تحمل إمكانية غرق السفينة، وهذه الامكانية مرهونةٌ بالبيئة الداخلية للسفينة من جهة وبالبيئة الخارجية المحيطة بالبلوة من جهة أخرى، هذه الصورة تمثل بذرةً تحمل إمكانية النمو، وخلق واقعٍ جديدٍ ينمو داخل البلورة، بحيث تمثل إمكانية الغرق صورةٌ افتراضية مقابل الصورة المتحققة التي تمثل الوضع الراهن للسفينة، وفي حال نمو البذرة تتحقق الصورة الافتراضية بغرق السفينة متأثرةً بالبيئة الخارجية التي تمثلها أحوال الطقس المسببة للغرق.

وبذلك يظهر شكل أخر للعلاقة بين الوجهين هو البرعم والبيئة أو حسب تعبير دولوز، الرشيم والبيئة، وهنا يؤكد دولوز أن حالة التناوب بين الوجهين، ترتبط بالبيئة المحيطة بشكلٍ عام، هذا ما يؤدي إلى صعوبة التمييز بين الوجهين، سواء في حالة المتحقق والافتراضي أو الرائق والكامد أو البذرة والبيئة، وذلك لأن الظروف المحيطة تجعل من المستحيل التكهن بشكل مسبق فيما إذا كان الافتراضي سوف يتحقق، أو كان الوسط الراهن سيتحول إلى افتراضي، كذلك هو الحال في كافة الأشكال الاخرى (الرائق والكامد) و(الرشيم والبيئة).

4.4: أنواع البلورات الزمنية:

من خلال تحليله لأعمال المنتجين السينمائيين حدد (دولوز) في كتابة سينما الصورة ـ الزمن. أربع أنواعٍ من البلورات، أولها البلورات الكاملة الأوصاف، وهي التي تكون سطوحها على شكل مرايا مائلة، ولا تكتفي بعكس الصور الراهنة فحسب، بل تشكل موشوراً لا تكف الصورة المنشطرة عن التنقل بين أوجهه، فتظهر الشخصيات وكأنها محبوسة في مجاميعٍ بلوريةٍ ليس لها مخرجاً. والنوع الثاني هو البلورات المصدوعة التي تحتوي شقوقاً تمنح الشخصية فرصة الهروب منها، فهناك عمقاً داخل الحلقة الداخلية، يمنح إمكانيةً دائمةً بأن يتسرب شيءٌ من خلاله. وتمثل بلورات البذور نوعاً ثالثاً تكون فيه البلورات قابلةً للتوسع، لأنها تشمل شيءٌ من الاستعداد الداخلي القابل للتغير لتشكيل شيء جديد، هذا الاستعداد أشبه برشيم النبات الذي يتفاعل مع البيئة ممثلاً صورةً "تمتلك قابلية للتطور بحيث يؤدي الرشيم دور الصورة الراهنة"(دولوز، 125،2015) أما النوع الرابع هو البلورات المتحللة والمضمحلة وهي التي لا يمكن أن تنفصل عن عملية تفسخٍ تنخرها من الداخل، وفي هذه البلورة دائماً هناك عنصراً فات أوانه، أي هو ما يمكن أن يوقف تفسخ البلورة لو أنه جاء بوقتٍ مبكرٍ، لكنه دائما يأتي بعد فوات الأوان، بحيث يكون التفسخ قد بلغ ذروته.

5.4: البلورات الزمنية كنموذج لدراسة الذاتية الإنسانية:

بناءً على ما تقدم يمكن القول: أن الصورة البلورية تركِّز في ذاتها كل العلاقات الممكنة بين الصورة الراهنة[3] وبين نظيراتها الافتراضية، وفي نفس الوقت تمثل الذاتية، بنيةً زمنيةً تظهر في العلاقات الدائرية بين مظاهرها الداخلية، وتفاعلاتها الخارجية، مثل المواقف والأفعال والتخيلات والتصورات، والتي هي ذاتها تكون قابلة للتقسيم إلى أمثلة فعلية وأخرى افتراضية، فيكون الذاتي هو ما

[2] تشير الى العلاقة بين الافتراضي والراهن حيث يصبح من المستحيل التمييز بينهما داخل الصورة مثل الشخص وانعكاس صورته بالمرأة.

[3] الصورة الراهنة هي الصورة التي تظهر الواقع الحاضر أو اللحظة الفعلية أي الحاضر المعاش ولكن ليس بصفته نقطة ثابتة بل في تفاعلاته مع الماضي والمستقبل مقابل الصورة الافتراضية.

يمكن تمييزه في الحالة الأكثر تكثفاً، أو في أصغر دائرةٍ داخليةٍ بين واقع الذات الزمني لحظة الفعل التي تمثل الحاضر، ونظيراتها الافتراضية التي تمثل الماضي المعاصر له.

وحسب تعبير برغسون، "إن الماضي والحاضر لا يدلان على وقتين متعاقبين، بل على عنصرين يوجدان بصورةٍ مشتركةٍ الواحد مع الآخر"(دولوز، 1997،63) ويمكن إيراد نص من كتابه (التطور الخلاق) يبين حالة التغير الدائم للذاتية الإنسانية في مجرى الديمومة من حيث أن" الإحساسات والعواطف والإدراكات والتصورات، هي التغيرات التي تتقسم وجودي ... وأن أشد الحالات الداخلية ثبوتا، كالأدراك البصري لشيءٍ خارجيٍ ساكنٍ، مهما أنظر إلية من جانبٍ واحد، فإن رؤيتي إياه الآن مختلفة عن رؤيتي إياه آنفاً، وهذا الاختلاف مقصوراً على كون الحالة الثانية أقدم من الأولى بآن واحد من الزمان، وسبب ذلك أن ذاكرتي تدفع في هذا الحاضر شيءً من ذلك الماضي، وأن حالتي النفسية كلما تقدمت في طريق الزمان تضخمت بالديمومة التي تجمعها، تضخماً متصلاً، وهذا أولى بأن يقال أن أعمق حالاتنا الداخلية كالإحساسات والانفعالات والرغبات، التي لا تطابق الشيء الخارجي الثابت مطابقة الإدراك البصري له، ولكن من المناسب أن لا نلاحظ هذا التغيير الدائم، إلا عندما يصبح كافياً لإضفاء موقفٍ جديدٍ على الجسد، واتجاهٍ جديدٍ في الانتباه، عند هذه اللحظة بالذات يجد المرء أن حالته تغيرت. فإن الحالة النفسية ذاتها ليست سوى تغير."(برغسون،1981، 7) وإن التغير هنا ليس أحادي البعد، يسير في خطٍ مستقيمٍ، وإنما تغيُّراً متعدد الأبعاد، يظهر من خلال العلاقة التبادلية بين الصور والإدراكات والأفعال والانفعالات، التي تشكل طبقاتٍ ذاتيةٍ مغلقةٍ، أي أن الذاتية تقترب دائما من أصغر حلقةٍ داخليةٍ تجمع بين الواقع والافتراضي، وهذا ما يفسح المجال لتحققٍ محتمل، لا يتم إلا بقدر ما يندمج الفعلي والافتراضي في صورةٍ ذات وجهين تشبه إلى حدٍ بعيدٍ التعبير السبينوزي الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وجهين لعملة واحدة. وعلى سبيل المثال، فإن الأفعال ذات الطبيعة الأخلاقية ترتبط بنظيراتها الافتراضية بالماضي والمستقبل، بنوع من التداخل غير المباشر، أي أن هناك حالة اتساقٍ بين سلسلة الإجراءات الواقعية التي يتم تنفيذها في أوقاتٍ مختلفةٍ، وبين سلسلة الصور الافتراضية، الماضية والمستقبلية، كما يمكن أن تكون الدائرة بين (الأقوال والأفعال) الحالية وبين(الأقوال في الماضي والمستقبل) بحيث تكون تصرفات الإنسان بموقفٍ معينٍ، تمثل بلورةً مكونةً من الأفعال المنفذة ونظيراتها الافتراضية، ورغم أن الصورة المتحققة تبدو وكأنها صاحبة الأولوية بالنسبة إلى الصورة الافتراضية، إلا أن التصور الدائري للحلقة البلورية يشير إلى أن أي من الصورتين لا تشكل أساساً بالنسبة للأخرى، فالبلورة تُكثف الاحتمالات الافتراضية مع الأفعال المتحققة في أصغر حلقةٍ دائريةٍ كما ذكرنا سابقاً، لذلك فإن الأفعال المتحققة تستمد قوتها من نظيراتها الافتراضية "فالافتراضي يمتلك الحقيقة التامة، فهو جزءٌ حصريٌّ من الموضوع الواقعي، وكأن أحد أجزاء الموضوع الواقعي كان غائصاً في الافتراضي كغوصه في بعد موضوعي"(باديو،2018،155).

وعندما يقترب هذا الافتراضي من التحقق، تزداد الكثافة ويصبح التمييز بين الافتراضي والفعلي ممكناً، لأن التمييز حسب دولوز، هو التفعّل، أما الفعلي فهو الفردية التي تمثل تفرد الأنا "فلأنا التقاءٌ بين دائرة الموضوعات الواقعية، ودائرة الموضوعات الافتراضية، تكثف في حلقةٍ داخليةٍ تشمل الواقعي والافتراضي"(باديو،2018،152) من هنا يمكن النظر إلى الذاتية بصفتها بلورةً زمنيةً من حيث أن تحقق الصور يتم في لحظة الفعل الحاضر، أو الوعي باللحظة الحاضرة، ونتيجة التبادل تنتقل لحظة الوعي إلى حالتها الافتراضية وذلك بأن تصبح في اللاوعي، وتحل مكانها لحظة وعيٍ جديدةٍ، فحسب برغسون المدة ذاتية وهي ما يشكل حياتنا الداخلية، فالذاتية الوحيدة هي ذاتية الزمن، والزمن ليس باطناً بل على العكس هو الباطن الذي نحن فيه، والذي نتحرك فيه، ونحيا فيه ونتغير فيه، وهذا يعني أن الزمن ليس مجرد شرط إمكانية الذاتية البشرية، وإنما هو شرط استحالة وجود ذاتيةٍ خالصةٍ، ومن هنا

فإن بلورات الزمن عند دولوز تتيح لنا إمكانية فهم تشـكل الذات ضـمن الزمن، ليس فقط تشـكل الذات ولكن تشـكيل كل ما يقبل التشكل." ففي البداية كل ما نكابده خلال الزمن هو الانفعال ثم أصبح الزمن نفسه افتراضية صرفة تنشطر إلى مؤثر ومتأثر أي انفعال الذات بالذات كتعريفٍ للزمن" (دولوز،138،2015) وكما أن الذرة المادية تحتوي بداخلها على مجمل العناصـر المكونة للكون، فإن البلورة الزمنية تحوي بداخلها مجمل تركيبات الزمن وتشـبه في بنيتها العلائقية تركيب الذرة المادية الجامدة، فبنية البلورة تحاكي بنية الذرة، وهذا واضـحٌ من خلال دوران الافتراضـي الذي يبدو وكأنه يتطابق مع سلوك الالكترون في دورانه حول نواة الذرة بشكل أفقي، وحالة تفعيل الافتراضـي يشبه أيضـا حالة قفز الالكترون من مداره إلى مدار آخر داخلي أو خارجي، كذلك فان حالة التبادل وصعوبة التمييز بين وجهي الصورة في الحلقة الداخلية للبلورة، يحاكي حالة الالكترون من حيث هو جزيء من جهة وموجة من جهة أخرى، فلا نستطيع تحديد مكان الالكترون بشكل دقيق بسبب سلوكه الموجيّ. وكأن دولوز حاول تأسيس مفهوم للزمان متأثرا بقوانين الفيزياء الكوانتية[4] ونظرياتها الحديثة من السببية المقلوبة[5] وغيرها. فزمن دولوز زمن فلسفي بلغة فيزيائية. لهذا يمكن القول إن فلسفة دولوز تمثل بيئة خصبة للدراسة والبحث، تنتظر الكشف عن الجوانب الغامضة فيها والتي يمكن أن تنقل الفكر الفلسفي نحو آفاق واسعة من الامكانات والاحتمالات الجديدة.

الخاتمة:

لقد تجاوز دولوز المفاهيم التقليدية للزمن سـواء التي تقول بأن الزمن خطي أو التي تقول بأن الزمن دائري و قدم تصـوراً مبدعاً يحول خط الزمن المستقيم إلى محيط دائرة متغيرة المركز ليصبح زمناً لولبياً متناعماً مع فلسفة الاختلاف، فالزمن توليف متعدد الأبعاد يتجسد في بلورات زمنية ليصبح تمثيلا ديناميكياً للحظة الراهنة بكل ما تحتويه من تداخلات وتكرارات ومن هنا يتجلى دورها المهم في فهم تشكيل الذاتية الإنسانية عبر الزمن وتمنح الأفراد القدرة على التفكير في تجاربهم وتنوعها من منظور مختلف بعيداً عن التصور الخطي الثابت للزمن وإمكانية النظر إلى الذات بصوفها كياناً مرناً قادراً على التجدد والتحول والاستجابة للتغيرات المستمرة في التجربة الزمنية.

نتائج الدراسة:

وقد خلص البحث الى مجموعة من النتائج:

1- ان البحث في بلورات الزمن يمكن أن يبرز أهمية اللحظات المفصلية في حياة الإنسان وتجاربه التي تلعب دوراً أساسياً في تشكيل ذاتيته بشكل مستمر.

2- إن أفكار دولوز يمكن أن تساهم في إعادة صياغة فهمنا للذاتية الإنسانية بطريقةٍ مختلفةٍ، مما ينعكس إيجابا على الفكر الفلسفي المعاصر، سواء في الفلسفة، أو علم النفس، أو علم الاجتماع.

[4] فرع من الفيزياء يدرس سلوك المادة والطاقة على المستوى الذري (الكترونات، فوتونات) وهي تختلف بقوانينها عن الفيزياء الكلاسيكية ومن مبادى الفيزياء الكونتية مبدأ عدم اليقين ومبدأ الازدواجية الموجية والجسيمية.

[5] أو السببية ذات الأثر الرجعي، ظهرت في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، وفيها يكون الترتيب الزمني بين السبب والنتيجة مجرد ميزة عرضية وقد تكون هناك حالات تسبق فيها النتيجة السبب زمنياً وليس سببياً.

3- لا يمكن معرفة على أي شكل سوف يتحقق الافتراضي أو حتى لا يمكن معرفة فيما إذا كان سوف يتحقق أم لا، وهذا نابع من رؤية دولوز الديناميكية للزمن، التي يجعل من الحاضر مستويات متعددة، لحواضر متعددة ينشطر فيها الحاضر في كل لحظة الى حاضرين يتجه أحدها نحو المستقبل والآخر نحو الماضي.

4- إن الذات عند دولوز ليست كيان ثابت، وإنما عملية تشكلٍ دائمٍ من خلال تحقيق الافتراضي فالافتراضي لا يتحقق بناءً على خطةٍ مسبقةٍ مثل الممكن، بل هو حالة خلقٍ وإبداعٍ دائم في الزمن.

التمويل:

هذا البحث مموّل من قبل جامعة دمشق وفق رقم المموّل:(501100020595).

المصادر والمراجع:

المصادر والمراجع باللغة العربيّة:

1- سانتهلير، بارتلمي. (1935). علم الطبيعة لأرسطو طاليس. ترجمة: أحمد لطفي السيد. مصر: القاهرة. دار الكتب المصرية. ص: 458.

2- ولسون، ك.(1992). فكرة الزمان عبر التاريخ – عالم المعرفة. ترجمة فؤاد كامل. عدد: اذار. الجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت. ص326.

3- ستيس، ولتر. (1984). تاريخ الفلسفة اليونانية. ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد. مصر: القاهره. دار الثقافة للنشر والتوزيع. ص: 316.

4- دعدوش، أحمد. (2011). مشكلة الزمان من الفلسفة إلى العلم. دار ناشري للنشر الالكتروني. ص: 32.

5- القديس أوغسطين (1991). اعترافات القديس اوغسطين. ط4. ترجمة: الخوري يحيى الحلو. بيروت: لبنان. دار المشرق. ص: 336.

6- الألوسي، حسام. (2005). الزمان في الفكر الديني والفلسفي. ط1. بيروت: لبنان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. ص: 290.

7- الصديقي، عبد اللطيف. (1995). الزمان – أبعاده وبنيته. ط1. بيروت: لبنان. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ص: 220.

8- بدوي، عبد الرحمن. (1973). الزمان الوجودي. ط2. بيروت: لبنان. دار الثقافة. ص: 278.

9- برغسون، هـ. (1981). التطور المبدع. ترجمة: جميل صليبا. بيروت: لبنان. للجنة اللبنانية لترجمة الروائع. ص: 358.

10- حدجامي، عادل. (2012).الوجود والإختلاف. ط: 2. الدرار البيضاء: المغرب. دار توبقال للنشر. ص: 271.

11- دولوز، ج وبارني، ك. (1999). حوارات في الفلسفة والأدب والتحليل النفسي. ط: 1. ترجمة: عبد الحي أزرقان، وأحمد العلمي. الدار البيضاء: المغرب. دار افريقيا الشرق. ص: 201.

12- دولوز، ج. (2015). سينما الصورة- الزمن. ط: 1. ترجمة: جمال شحّيد. بيروت: لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية. ص: 465.

13- دولوز، ج.(2009). الإختلاف والتكرار. ط: 1. ترجمة: وفاء شعبان. بيروت: لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية. ص: 624.

14- نيتشه، ف.(1993). العلم المرح. ط: 1. ترجمة: حسان بورقية ومحمد الناجي. الدار البيضاء: المغرب. افريقيا الشرق. ص: 284.

15- نعيم، جمال. (2010). جيل دولوز وتجديد الفلسفة. ط: 1. بيروت: لبنان. منشورات المركز الثقافي العربي. ص: 528.

16- دولوز، ج. (2015). الفرق والمعاودة. ط: 1. ترجمة: عبد العزيز العيادي. بيروت: لبنان. دار طوى للثقافة والنشر. ص: 587.

17- باديو، أ. (2018). دولوز صخب الكينونة. ط: 1. ترجمة: ناجي العوتلّي. بيروت: لبنان. منشورات الجمل. ص: 206.

18- دولوز، ج. (1997). البرغسونية. ط: 1. ترجمة: أسامة الحاج. بيروت: لبنان. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر. ص: 148.

المصادر والمراجع باللغة الإنكليزيّة:

1. Deleuze, G. (1968). Difference and Repetition. Trans. Paul Patton. New York: Columbia University press.p;367.
2. Williams, j. (2011).Gilles deleuze's philosophy of time: A Critical introduction and guide. Publisher :Edinburgh university press. Paul Patton. New York: Columbia University press.p;206.